الأسلوب القرآني ومصطلحاته من منظور الأشعري أبي بكر الباقلاني

الدكتور: محمود فتوح

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف-الجزائر

ملخص:

لقد احتفى الدرس العربي منذ القديم بدراسة الأسلوب، حيث إنه مجال خصب، خاصة في مباحث إعجاز القرآن التي استدعت بالضرورة ممن تعرضوا له بالشرح والتفسير أن يفهموا مدلول مصطلح « الأسلوب » عن بحثهم الموازن بين القرآن الكريم وغيره من أساليب كلام العرب بغية إظهار البراعة والتفوق، متخذين ذلك وسيلة لإثبات إعجاز القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب القرآني ; الباقلاني ;الأسلوب

يعتبر الباقلاني أبرز العلماء الذين أعطوا لمصطلح « الأسلوب » بُعداً فنياً، ودراسة مستفيضة خاصة لأسلوب القرآن الكريم، الذي رأى أن أسلوبه "يتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[1] .

وفي تناوله لهذا المصطلح، اطلع على ما قدَّمهُ ابن قتيبة (ت276هـ)[2]، وأبو سليمان الخطابي(ت388هـ)[3]، وكلا من الرجلين ربط بين الأسلوب والطريقة الفنية في الآداء، باعتبار أن هذا الربط خير وسيلة لإدراك إعجاز القرآن .

وقبل أن نتعرض إلى مدلول المصطلح عند الباقلاني، نبحث عن دلالته في المعنى المعجمي :

لغة : يُقال للسطر من النخيل : أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب : الطريق والوجه والمذهب، يُقال : أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب . والأسلوب : الطريق تأخذ فيه والأسلوب : الفن، يُقال : أخذ فلان في أساليب من القول، أي : أفانين منه[4].

اصطلاحا : إن تحديد مفهوم مصطلح الأسلوب تحديداً علمياً دقيقاً، أمر من الصعب جداً ضبط معناه بشكل دقيق شامل مانع ؛ لأنه "لا يوجد حتى الآن تعريف دقيق للأسلوب، كما لا توجد نظرية أسلوبية محددة، وقد جعلت هذه الحقيقة بعض مؤلفي المقدمات في علم الأسلوب يأتون في بداية شروحهم بمختارات من تعريفات الأسلوب المتضاربة"[5] .

ورغم ذلك، نجد أغلب التعريفات لدي البلاغيين تتفق أن المعنى الآني لمصطلح الأسلوب هو: "نظم الكلام"[6]، أو "طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريق اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير"[7] .

وبعد تحديد المفهوم اللغوي والاصطلاحي لمصطلح الأسلوب، نعمق النظر في وجه رأي الباقلاني حوله .

ولكن هناك إشكالية تصادفه في بحثه، ألا وهي: "طبيعة التعامل مع مصطلح الأسلوب وطبيعة اعتماده كمصطلح من مصطلحاته النقدية القارة"[8] .

فهو يتعدد باصطلاحاته، ويتنوع في التعبير عنه بأفكاره، وكلها تؤدي معنى الأسلوب أو الطريقة .

ولكن السؤال المطروح : ما هي هذه المصطلحات التي عَادَلَ بها مصطلح الأسلوب ؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- مصطلحات الأسلوب :

لقد استخدم الباقلاني مجموعة من المصطلحات التي تؤدي من الدلالة ما يؤدي إليه مصطلح الأسلوب، ونؤَدُ في هذه الجزئية أن نكشف عن هذه المصطلحات وما تقدمه من فهم يكشف لنا عن حقيقة الأسلوب وماهيته .

ولكن هذا لا يعني أن الباقلاني لم يستخدم مصطلح الأسلوب قط، بلى، قد وظَّفهُ في العديد من المواقف والمحافل للدلالة على رفعة أسلوب القرآن الكريم عن غيره من الأساليب، ونجده في ذلك يقول : "وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[9] .

ويقول أيضاً : "وقد بَيَّنَا _ في الجملة _ مُباينة أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب، ومزيته عليها في النظم والترتيب، وتقدُّمه عليها في كل حكمة وبراعة"[10] .

أما غيره من المصطلحات، فمعظمها تستند على أساس المعنى المعجمي لمصطلح الأسلوب من أهمها : مصطلح « طريقة »، أو« طريق »، أو« طُرق »، و« مجرى »، و«مسلك» و« مذهب »، و « منهج »، و« مأخذ »،و« مأتى »، و« وجه »، إلى غير ذلك من المصطلحات، وكلها ترتبط بالأسلوب .

فمثلا مصطلح « طريق »، فقد استخدمه لوصف أسلوب القرآن الكريم، بعدم التفاوت في "كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه "[11].

واهتم كذلك بإيضاح هذه الفكرة بصفة عامة من خلال الكلام على الشِّعر والنثر، وقال: طريق الشِّعر، وطريقة الشَّاعر، قاصداً أسلوبه، وقد كَثُرَ استخدام هذا المصطلح تعبيراً عن أساليب الشعراء، وأسلوب شاعر بعينه، وعلى أساس ذلك يتميز شعر أحدهما عن غيره، فالعالم بالشِّعر "إذا عرف طريقة شاعر قي قَصَائد معدودة، فَأُنْشِدَ غيرها من شعره، لم يَشُكَّ أن ذلك من نَسْجِه، ولم يَرْتَبْ في أنها من نظمه، كما أنه إذا عرف خط رجل، لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة"[12].

وهذا معناه: أن الأسلوب الشخصي للكاتب أو الشاعر يعكس "الصورة الحية في شخصية الأديب في تفكيره وشعوره وتخيله وتعبيره"[13] .

وعليه فإن "التشابه بين الطريقتين للشاعرين، كأبي تمام والبحتري، لا يمكن أن يقع أبدا وإذا وقع هذا الاشتباه، فإنه لا يكون كلاما ولا تاما، ففي القليل الذي يتركه كل واحد منهما في طريقته يكشفه ويفصح عن شخصيته، ولكن مثل هذا الكشف لا يقع للإنسان العادي، وإنَّما للخبير بصناعة الشعر ونقده"[14] .

يقول الباقلاني:"ولا يَخْفى على أحد يميز هذه الصنعة سَبْكَ أبي نواس من سَبْك مسلم، ولا نسْج ابن الرُّومي من نسج البحتري، وينبهه ديباجة شعر البحتري، وكثرة مائه، وبديع رَوْنَقه وبهجة كلامه، إلا فيما يسترسل فيه، فيشتبه بشعر ابن الرُّومي ... وكل له منهج معروف وطريق مألوف"[15].

ويستعمل كذلك « الطريقة » بمعنى الأسلوب، التي يقصد بها منهل مؤرُود، وباب واسع وطريق مَعْبُود، وبها يُعبر عن "خواطر يُغِيرُ بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض والغرض الذي يرمي إليه، ويصح التَوَافِي عليه، في الجملة، فهو قَبِيل متداول، وجنس مُتنازَع وشريعةُ مَوْرُودة، وطريقة مسلوكة"[16] .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويضرب لذلك مثالاً بالعالم "إذا عرف ما يجري إليه الكلام، وينتهي إليه الخطاب، ويقف عليه الأسلوب، ويختص به القبيل، بان عند أهل الصنعة تميزُ بابه، وإنفراد سبيله، ولم يَشُكَّ البليغ في انتمائه إلى الجهة التي ينتمي إليها، ولم يرتب الأديبُ البارع في انتسابه إلى ما عرف من نهجه . وهذا كما يعرف طريقة مترسَّل في رسالته، فهو لا يخفي عليه بناء قاعدته وأساسه، فكأنه يرى أنه يعد عليه مجاري حركاته وأنفاسه . وكذلك في الشِّعر واختلاف ضروبه، يعرف المتحقق به طبع كل أحد، وسبيل كل شاعر"[17].

أما توظيف مصطلح « الطُرق »، فَوضَّحَ به أن أساليب كلام العرب البديع المنظوم ينقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، و"لا يخرج عن أربعة أقسام : النثر، والنَّظم وهو المقفى غير الموزون والنَّظم، والموزون غير المقفى نحو السجع والخطب، والنَّظم المقفى الموزون الذي هو الشعر، وأن أسرعها إلى النَّفسِ هو النثر، ويليه المقفى وهو السجع، ويليه الموزون غير المقفى ويلي ذلك المقفى الموزون على روي واحد وهو الشعر"[18] .

أما مصطلح « مذهب »، فيقصد به أن أسلوب القرآن الكريم مُباين لجميع أساليب العرب "وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومُباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[19].

ويستخدم كذلك مصطلح « مسلك » للدلالة على أن أسلوب القرآن الكريم "إذا علا الكلام في نفسه، كان له في الوقع في القلوب والتمكن في النفوس، ما يُذْهِلْ ويُبهج، ويُقلق ويؤنس ويُطمع ويؤيس، ويُضحك ويُبكي، ويُحزن ويُفرح، ويُسكن ويُزعج، ويُشجي ويُطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويُورث الأريحيَّة والعِزَّة، وقد يبعث على بَذْلِ المهَجِ والأموال شجاعةً وجوداً، ويرمي السامع من وراءه رأيه مرمى بعيداً، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة"[20] .

أما مصطلح « منهج »، فقد استعمله بمعنى الطريقة، أو أسلوب كل شاعر أو ناثر متأثر بشخصيته، أو طبيعته النفسية، وأكد هذا في كلام الشاعر الذي "ينبئ عن محل صاحبه، ويدل على مكان متكلمه، ويُنبه على عظيم شأن أهله، وعلى علو محله . ألا ترى أن الشعر في الغزل إذا صدر من مُحبٍّ، كان أرق وأحسن، وإذا صدر عن مُتَعَمَّل وحصل من متصنع، نادى على نفسه بالمداجاة، وأخبر عن خَبِيئِه في المراءة . وكذلك قد يصدر الشِّعر في وصف الحرب عن الشجاع، فيعلم وجه صدوره، ويدل على كُنهه وحقيقته. وقد يصدر عن المتشبه، ويخرج عن المتصنع، فيعرف من حاله ما ظن أنه يخفيه ويظهر من أمره خلاف ما يبديه "[21].

ويضرب في ذلك مثلا بموازنة بين وصف المتنبي والبحتري، ويجد أن المنهج الذي يتخذه الأول "من الوقع في القلب، لما تعلم من أهل الشجاعة، ما لا تجده للبحتري"[22].

والأمر نفسه في طريقة ابن المعتز (ت296هـ)، فإنك _ لا محال _ "تعلم لأنه مَلِكُ الشِّعر وأنه يليق به من الفخر خاصةً، ثم مما يتبعه مما يتعاطاه، مالا يليق بغيره، بل ينفر عن سواه"[23] .

واللافت للنظر أن الباقلاني في حديثه عن الأسلوب الشخصي الذي يميز كل كاتب أو شاعر عن غيره، لم ينسَ بعض كُتَّاب الرَّسائل، الذي لاحظ أنهم يتقاربون في الأساليب، على الرغم من تميز كُتَّاب كل عصر، عن غيره من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العصور، يقول: "ولا يخفى ــ على الرجل ــ في زماننا الفصلُ بين رسائل عبد الحميد وطبقته، وبين طبقة من بعده، حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد، وبين رسائل أهل عصره، ومنْ بَعدَه ممن برع في صنعة الرَّسائل، وتقدَّم في شأوها، حتى جمع فيها طرق المتقدمين، وطريقة المتأخرين، وحتى خلَّص لنفسه طريقة، وأنشأ لنفسه منهاجاً "[24] .

واستعمل كذلك هذا المصطلح في تمييز أسلوب القرآن الكريم عن غيره من الأساليب، فهو عنده "يجري في سَبْكِهِ على نظام، وفي رصفه على منهاج، وفي وضعه على حد، وفي صفائه على باب، وفي بهجته، ورونقه على طريق، مُختلِفه مؤتلف، ومُؤْتلفُه مُتَّحِدْ، ومُتباعده متقارب، وشارده مُطيع، وهو على متصرفاته واحد، لا يُسْتَصعبُ في حال، ولا يتعقد في شأن"[1].

هذه أبرز المصطلحات التي عَبَّر بها الباقلاني عن الأسلوب، وكلها تؤدي من المعنى الطريقة والأداء .

وفي تناوله لهذا المصطلح، كان عازماً في استخدام كثير من المصطلحات للتعبير على أن أسلوب القرآن الكريم خارج عن الكلام المعتاد، ومُباين ــ في الجملة ــ لكل الطرق، وَوَضَحَ في ذلك أنه رغم الخروجات المتنوعة في موضوعاته، إلا أنه كلوحة فنية متشاكلة الأطراف، يستحيل وجود بها فروجات، وهذا من أهم ميزات أسلوب القرآن.

3- أسلوب القرآن الكريم دليل إعجازه :

إن الحديث عن إعجاز القرآن الكريم وطرائق قصصه، وفن تصويره، ومناهجه التربوية مرهون بخصائص أسلوبه الفريد، الذي لا يُضاهيه أسلوب، يَعلو ولا يُعلى عليه.

غير أن علينا قبل الخوض أن نصور للأسلوب القرآني مفهوما ونستعرض لهذا الأسلوب استعراضاً سريعاً عند الباقلاني.

فالأسلوب القرآني هو : "طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه"[26] و"الكافل بإبراز إعجاز النظم المبين، ما أودع من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما تضمَّنه في الحلاوة، وجللَّه في رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها ، ولا فرق بين ما يرجع الحسن إلى اللفظ أو المعنى"[27] .

وإذا أردنا الاختصار في التعبير عن الأسلوب القرآني، فإنه يشمل كل ما يندرج تحت مسمى « البيان »[28]، وهذا المعنى لا يقتصر "على هذه الأنماط التعبيرية التي تشمل النص أو الرسالة، بل يتعداها إلى الأثر النفسي المنشود في وجدان المتلقي، مهما تباعدت السياقات وتباينات المقامات"[29] .

وفي تناوله لأسلوب القرآن الكريم، نجده ينظر إليه "نظرة مزدوجة على أساس أن مناط الإعجاز عنده هو : «نظم القرآن وأسلوبه المتميز»"[30] .

ولتأكيد هذه الازدواجية نجده يحل نظم القرآن، "محل سماع الكلام من القديم سبحانه وتعالى ويقول : "من يسمع القرآن يعلم أنَّه كلام الله"[31] .

ويوضح كذلك هذا المعنى في العديد من الأمثلة والشواهد، وكلها تُبرز أن إعجاز القرآن يتجلى في خروج أسلوبه عن هذه المواصفات التي تُميز أساليب البشر، يقول :"وقد بَيَّنَا ــ في الجملة ــ مُباينة أسلوب نظم القرآن جميع

المنارة للاستشارات www.manaraa.com

الأساليب، ومزيته عليها في النظم والترتيب، وتقدُّمه عليها في كل حكمة وبراعة "[32] . وأن له أسلوباً "يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[33].

وهذا الأسلوب هو الذي قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحجة في أنفسهم، وتركهم في ذلك يتلكأون، واليأس قائماً في وجههم لا يتصل به الطمع، على الرغم من أن الحروف والمفردات والجمل والقواعد، جارٍ على النهج العربي المألوف، ولكنه من حيث أسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامي الفريد، خارج عن المعهود، ومُباين للمألوف .

فطريقته الساحرة جعلت الأنفس تَخِرُّ إليه بالتعجب والانبهار، وقد ملك قلوب قارئيه بالإيمان، فاسْتَهوى على عُقول العلماء، كما استهوى على الأمي الساذج على السواء، الذي غمرت ألفاظه في قلبه، وأثرت في سمعه، فأصبح متعجباً من هذا الأسلوب الرباني الذي يتميز بـ"عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها"[34] .

ويرى أن مكمن الإعجاز في هذه المباينة يتضح "إذا تأمله المتأمل، تَبَيَّنَ _ بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم _، أنه خارج عن العادة، وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتَمَيُّز حاصل في جميعه "[35] .

ولم يكتف الباقلاني بلمس هذه الحقيقة، وإنَّما ربط _ أيضاً _ بين أسلوب القرآن الخاص وتميزه كجنس كلامي آخر، غير تلك الأجناس الكلامية التي يعرفها العرب، يقول : "ونظم القرآن جنس مُتَمَيِّز، وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير مُتخلص"[36]، وله أسلوب "مُباين لسائر كلامهم، ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحدِّ الذي يقدر عليه البشر"[37] .

وبالتالي فالباقلاني _ كما يقول محمد عبد المطلب _ يربط بين الأسلوب والجنس الأدبي الذي يرد فيه ؛ لأن لكل منها خواصه الفنية التي تتطلب نظمها في أسلوب يلائمها[38].

وكذلك القرآن، فإن له أسلوبا لا يغيب على "البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة يعرف إعجاز القرآن، وتكون معرفته حجة عليه"[39].

فمعرفة اللسان العربي، وأساليب الكلام فيه، ووجوه تصرف اللغة، هي الطريقة المثلى _ في نظر الباقلاني _ لمعرفة إعجاز القرآن ؛ لأن "القدر الذي ينتهي إليه وُسْعُ المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوُسْع، ويتجاوز حدود القدرة، فليس يخفى عليه إعجاز القرآن كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشِّعر"[40].

والإعجاز عنده لا يتعلق بالبلاغة قطعاً كما يظن بعضهم، لأن أسلوبها في نظره صفة تدل على العبارة المنفردة، بينما الأسلوب "يختص بمعنى آخر من الشرف، ثم الفواتح والخواتم والمبادي والمثاني، والطوالع والمقاطع، والوسائط والفواصل، ثم الكلام في نظم السور والآيات ثم في تفاصيل التفاصيل، ثم في الكثير والقليل"[41] .

وبعد هذا فإننا نقول : إن أسلوب القرآن الكريم في هذا مُبَّاين لجميع الأساليب، وهو أرقى من كل أسلوب، وأسمى من كل كلام، لم يعهد العرب مثله في نظام القول وترتيبه، وما استطاعوا على كثرة فصحائهم في دهر نزوله أن يُنافسوا مثاله في أسلوبه .

المنارة للاستشارات www.manaraa.com

الهوامش:

[1]– إعجاز القرآن، ص35 .

[2]– ينظر : تأويل مشكل القرآن، ص12 .

[3]– ينظر : بيان إعجاز القرآن، ص60 .

[4]– ابن منظور : لسان العرب، مج1، ج1، ص549–550 .

[5]– برند شبلنر : علم اللغة والدراسات الأدبية دراسة الأسلوب البلاغة علم اللغة النصي، ترجمه وقدم له وعلق عليه محمود جام الرّبي، الدار الفنية، الرياض السعودية، ط1، 1987م، ص25 .

[6]– أحمد أمين : النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط4، 1387هـ/1967م، ص71 .

[7]– أحمد الشايب : الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة مصر، ط6، 1966م، ص 44.

[8]– سامي محمد عباينة : التفكير الأسلوبي رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث، ص36.

[9]– إعجاز القرآن، ص35 .

[10]– نفسه، ص 216 . وينظر : ص 286 .

[11]– المصدر السابق، ص216 .

[12]– نفسه، ص 120 .

[13]– محمد عَبَّاس : الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص41 .

[14]– إبراهيم خليل : الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1997م، ص 24.

[15]– إعجاز القرآن، ص 121 .

[16]– نفسه، ص 216 .

[17]– نفسه، ص 209 .

[18]– نكت الإنتصار لنقل القرآن، ص270 . وينظر : إعجاز القرآن، ص 35 .

[19]– إعجاز القرآن، ص 35 .

[20]– المصدر السابق، ص 277 .

[21]– نفسه .

[22]– نفسه، ص 278 .

[23]– نفسه، ص 121 .

[24]– المصدر السابق، ص121 .

[1]– نفسه، ص 182–183 .

[26]– محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، ج2، ص 239 .

[27]– الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة مصر، ط3، 1384هـ/ 1984م، ج2، ص 382 .

[28]– محمد إقبال عروي : اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني رصد واستدراك، دار الآمان، الرباط المغرب، دط، 1416هـ/1996م، ص 18 .

[29]– نفسه .

[30]– محمد عبد المطلب : مفهوم الأسلوب في التراث، فصول مجلة النقد الأدبي، مج7، ع3–4، ابريل سبتمبر1987م، ص 49 .

[31]– إعجاز القرآن، ص 15 .

[32]– نفسه، ص 216 . وينظر : ص 286 .

[33]– نفسه، ص 35 .

[34]– المصدر السابق، ص 36 .

[35]– نفسه، ص 35 .

[36]– نفسه، ص 159 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[37]– نفسه، ص 286 .

[38]– مفهوم الأسلوب في التراث، ص 17 .

[39]– إعجاز القرآن، ص27 .

[40]– المصدر السابق، ص 113 .

[41]– نفسه، ص 300 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com